ماذا نريد من الجيش؟

لا نريد من الجيش أن ينقلب على حكم الإخوان أو على رئاسة مرسى، ولسبب بسيط، هو أنه لا وجود حقيقيا لحكم الإخوان، ولا لرئاسة رجل «يشبه الفراغ»، بينما الجيش حقيقة وطنية صلبة ثابتة، تفيق لذاتها، وتحدث وتطور دورها، وتعيد بناء قدراتها القتالية والميدانية، وتفرض نفسها على خط سير الحوادث فى مصر المضطربة الآن.

وبوضوح، نريد من الجيش أن يستعيد «جيشيته» إن دق التعبير، فقد تعرض الجيش لمحنة طويلة، ترافقت بالضبط مع عودة مصر إلى القيد الاستعمارى من جديد قبل أكثر من ثلاثين سنة، فقد أدت معاهدة العار - المعروفة باسم معاهدة السلام - إلى نزع سيادة السلاح فى سيناء، وأدت المعونة الأمريكية الضامنة إلى نزع سيادة القرار فى القاهرة، ووقع الجيش ضحية القيدين، فقد حرموه طويلًا من بسط سيادة السلاح فى غالب سيناء، وبعمق مئة وخمسين كيلومترًا إلى غرب الحدود التاريخية مع فلسطين المحتلة، ثم أن الجيش وقع ضحية سياسة متواطئة فى قصر رئاسة المخلوع مبارك، اعتمدت سياسة «إحلال الأضعف»، ونشرت فيروس الفساد فى أجهزة ومؤسسات الدولة الأكثر حساسية، وسعت إلى «بزنسة» قيادات الجيش، وبغرض إضعاف اهتمامها بالسياسة والسلاح، وهو ما أدى إلى قدر ملحوظ من «الرخرخة» وضعف التكوين القيادى، بدت آثارها ظاهرة فى فترة حكم طنطاوى وعنان عقب خلع مبارك، والتى أدارت أسوأ مرحلة انتقال بعد ثورة شعبية هائلة، ومال طنطاوى وعنان إلى عقد الصفقات مع قيادة الإخوان، والتى اعتمدت سياسة «تصدير الخوف»، ونجحت فى دفع طنطاوى وعنان إلى قبول صفقة الخروج الآمن، ومقابل فتح طريق دخول بدا

آمنا للإخوان، ومع كامل الاحترام لآراء أخرى، فلم يكن طنطاوى ولا عنان من جنرالات الفخار فى تاريخ الجيش المصرى، بل لحق بهما العار فى نظر غالبية المصريين العاديين، وإن غضبت قيادات فى الجيش لطريقة إخراجهما المهينة من الخدمة، وقبل موعد التسليم المتفق عليه، لكن تعيين الفريق أول عبدالفتاح السيسى وزيرًا للدفاع وقائدًا عامًا للقوات المسلحة، وقد كان متفقا على اسمه، هذا التعيين استثار حالة ترقب، ودفع بالظنون إلى النفوس، ودفع إلى سؤال بدا مستريبًا فى القصة كلها، كان منطوقه كالآتى: هل يكون السيسى مجرد خلف مؤقت لعهد سلفه المزمن المشير طنطاوى؟، وحتى يتمكن حكم الإخوان من إزاحته؟. والإتيان بجنرال مطيع لأوامر مكتب الإرشاد؟، وبدا السيسى - لحسن الحظ - مشغولا عن هذه التساؤلات كلها، ومشغولا عن اتهامات سياسة تطرفت إلى حد وصفه بالرجل الإخوانى، وهو ما لم يكن صحيحًا فى أى وقت، وحصر الفريق أول السيسى همه فى مهمة استعادة الجيش لثقته بنفسه ودوره، ولم تمر سوى شهور قليلة، حتى أثبت السيسى مقدرته كجنرال محترف، أزاح كثيرًا من غبار لحق بصورة الجيش المصرى، واستعاد أعرق التقاليد الوطنية لجيشنا العظيم، وبفضل نزاهته الشخصية وحيويته الطافرة وذكائه الحاد، نجح فى بث روح جديدة، وفى ظل ظروف بدت معيقة سياسيًا، لكنه - أى السيسى - أزال الكثير من العوائق، واستخلص للجيش دوره، وخلق روح الانسجام فى القيادة، وبدا فى شخصه مزيجًا ممتازًا من البساطة والتواضع والحزم، ومن حسن الإدراك للخطر الذى يتهدد مصر المأزومة الآن، وللخطط التى تدار لإضعاف الجيش المصرى، والتى تورطت فيها دوائر من حكم الإخوان الافتراضى، وبالتنسيق المباشر مع رغبات الأمريكيين والإسرائيليين، والذين فرحوا بتحطيم جيوش فى مشرق العالم العربى ومغاربه، ويريدون للجيش المصرى أن يلحق بمصير التفكيك، أو حتى أن يبقى على ما كان عليه من حال الركود، وهنا بدا دور السيسى متألقًا، فقد أعاد تنظيم الجيش، وواصل تدريباته ومناوراته، ووضع

خرائط جديدة لنشر قواته، والتفت بشدة إلى إحياء الانتاج الحربى، وجعل الجيش حاضنًا لمشروعات كبرى، وفى تحرك نشيط يذكرك إلى حد بدور الفريق أول محمد فوزى فى عملية إعادة بناء الجيش عقب هزيمة ١٩٦٧، ورغم اختلاف الظروف، فقد كانت فى مصر وقتها قيادة تاريخية فى حجم جمال عبدالناصر، كانت هى الإرادة الحاسمة التى ساندت عملية بناء الجيش من نقطة الصفر، وكانت الهزيمة فى ١٩٦٧ محض هزيمة عسكرية، لكنها لم تنل من الروح، ولا من صلابة الرغبة فى المقاومة، ولا من حيوية اقتصاد صناعى وانتاجى أمد الجهد العسكرى بزاد لا ينفد، لكن الفريق أول السيسى ينهض بمهمة مشابهة فى ظروف جدّ مختلفة، فقد لحقت بالبلد ـ على مدى أربعين سنة ـ هزيمة حضارية تاريخية شاملة، هوت بمصر ـ بعد حرب ١٩٧٣ ـ من الحالق إلى لفالق، ودخلت الهيمنة الأمريكية على خط التفاعلات الداخلية، ثم استمر الوضع العام على هوانه إلى الآن، فالرئيس المجزوع محمد مرسى بدا تكرارًا باهتا لسيرة الرئيس المخلوع محمد حسنى، كان مبارك يريد مصر كعزبة بالحجم العائلي، بينما يريد مرسى جعل مصر عزبة بالمقاس الإخوانى، أى أن الإرادة السياسية بدت معاكسة تمامًا لفكرة إعادة بناء جيش دولة بحجم مصر، وهنا بدت قيادة الجيش الجديدة على قدر ملموس من الوعى السياسي، فقد كان على السيسى أن يبلور إرادة سياسية ذاتية ممتزجة تمامًا مع الجهد العسكرى، وهو ما يفسر صعود نجم السيسى فى الشارع كما فى الجيش، ويثير حنق وغيظ الإخوان المتآمرين على أمن مصر ووجودها، ويحبط آمال قوى إقليمية صغيرة الحجم واسعة الثراء، تدفع بمليارات الدولارات إلى مصر، وعلى طريقة متعهدى الحفلات الأمريكية والإسرائيلية، والذين ينهضون بعبء الدفع عوضًا عن الخزانة الأمريكية المنهكة، وتسهيل عملية إضعاف الجيش، ودفع قواته بعيدًا إلى مدار الحدود، وإخلاء المسارح المركزية لعمل ميليشيات تحمى العاجزين سياسيًا، وفى أجواء من الانفلات تهدد الوجود المصرى، ليس فقط بمخاطر فصل سيناء، ولا الهيمنة

على قناة السويس، بل بزرع الخطر فى قصور التوجيه والرئاسة. ولن نتحدث كثيرًا عن توتر ظاهر بين قيادة الجيش والرئاسة العاجزة، ولا عن ارتباطات مريبة للحكم الافتراضى تبدو أماراتها ساطعة كالشمس، فقد صار ذلك كله من وقائع الحياة اليومية المصرية، ومن نوع تهجمات بديع والزايط وأبوإسماعيل وحجازى، وتهديدات جماعات الإرهاب من أبناء عمومة مرسى، وحملات الميليشيات الإلكترونية المدارة بأموال خيرت الشاطر، فهذه ـ وغيرها ـ صارت لعبة مكشوفة وممجوجة، وواصلة إلى قيادة الجيش، والتى تراقب الموقف بدقة، وتكتفى إلى الآن بالتحذير الضمنى من «التفاهات»، وتلتزم بنضج رفيع المستوى، لا يحرفها عن طريقها الوطنى، ولا يجعلها تقتنع بخدع مرسى الصغيرة من نوع إشادته بالسيسى ككفاءة عسكرية كبرى وعقلية هندسية متميزة، فقد فات وقت الحيل والكلام المعسول، وسقطت الأقنعة كلها عن وجه الإخوان القبيح.

ونحن لا نريد للجيش أن ينقلب على مرسى، فالرجل ينقلب على نفسه بنفسه، ويندفع من الخطأ إلى الخطيئة، ويثبت فى كل يوم فقدانه لأى أهلية عقلية أو وجدانية، والشعب وحده سوف يتكفل بهزيمته، وإلى أن يحين موعد خلعه، فنحن لا نطلب من الجيش إلا أن يواصل مشوار استعادة العافية، وأن يقرر الاستغناء عن المعونة العسكرية الأمريكية التى تقيد انطلاق طاقاته، وأن يظل جيشنا حارسًا لوجود مصر فى لحظة الخطر، ودون أن يتورط فى نصرة حكم افتراضى خان الثورة ويخون البلد.

"صوت الأمة " فى ٦ من مايو٢٠١٣